

# أدب المذكرات في تونس

بقلم محمد محمود صموحلي

والمذكرات من زاوية الاديب ليست دائما شبكة لاصطياد الجمهور ونفاده بطريقه اكثر ذكاء من افنعة الفن ، وليست دائما بريرا لسقوط في انخط التصاعدي ، او لاختفاء في الانتماء السياسي او الاجتماعي او الادبي . كما أن المذكرات ليست دائما نصفيية حساب مع عصر كامل او جيل من الاجيال ، وانما منها ما يكون بحثا عن الذات وتحليلا لنموها ودراسة صارمة لارهاصاتنا وتفاعلها مع العالم الخارجي كما فعل اندري جيد في بعض « كناناهه » - بل قد تكون المذكرات تفاعلا مباشرا مع انتاج الكاتب . فهذا ( جيد ) في « مذكرات مزيفي النفوذ » يتحاور مع بعض اصحابه ، وهذا سولوى برودوم يحيل مذكراته الشخصية الى مادة خام لفصائمه ، وهذا كيسرلينغ في كتابه « مذكرات رحلة فيلسوف » يقول لنا ان هذه المذكرات تضمن بنور كافة اصحابه المقبل .

بازاء هذا التنوع الذي لا يكاد يقع تحت حصر في طريقة صياغة المذكرات ، ونظرا لتكيف هذه المذكرات بأمزجة الادباء وبالصفوف الخارجية وبغيرها من عوامل ، لم يفقد نضاد القرب من هذه الآثار المشعبة موقف الحيرة وانما قاموا بعمليات التصنيف والتبويب والتشريح لمادة المذكرات مستخدمين في ذلك كافة ادوات العلوم الحديثة . وبذلك نمكنوا من السيطرة النسبية المتطورة على هذا الفن المتحرر من القيود الفنية بقدر خضوعه لشخصية الفنان في ادق خصائصها المميزة .

فالمذكرات في نظر الدراسات الغربية ليست كل ما يكتب بالضرورة تحت هذا العنوان ، وهي لئن فصلت وأطرت في اصناف ، قد تكون في الآن نفسه مذكرات مختلطة ( Journal mixte ) شاملة لتوعين فاكتر كما انها ليست دائما وبالضرورة يعلم الاديب وانما قد تنحسد طابع « الشهادة » ونصبح ( مذكرات - بواسطة ) كما هو الحال بالنسبة للشاعر الفردي موسيه الذي كتب عنه شقيقه في الرد على جورج صائد ، او كما هو الحال بالنسبة لفكتور هيفو وتولستوي وقد كتبت عنهما زوجناهما ، او بالنسبة لشاعر الحيرة ( لامرتين ) الذي تحدثت عنه امه او بالنسبة للاديب اللبناني جبران خليل جبران الذي كتبت عنه امرأتان من اميركا ، ومذكرات الاولى « بربراة يونغ » ، قد نشرت اما مذكرات الثانية ( ماري هاسكل ) - وهي الاهم - فما زالت مخطوطة الى الان ولم يهتم بها الا عربي واحد وهو « توفيق

1 - ادب المذكرات في بوس ( ١٤ ) جزء لا يتجزأ من ادب المذكرات العربية عموما ، بل من اشدها قريبا الى المفهوم المعاصر لهذا النمط من التدوين الكتابي الذي اعنه ادباء القرب ايما انان ، واصبح يتبوأ مكانة ممتازة نهم القارئ والناقد على حد سواء ، استهلاكا جماهيريا ، وسعة رواج ، وانارة لاهتمام نضاد القرب لما نبيحه لهم من كشف ، ولما تفتتحه امام نظراتهم الفاحصة من نوافذ في منعطفات التحليل الادبية والنفسية والاجتماعية ، وبعاريج السوايل التمدي ، وعتصات الاتهام الفني ... اذ لا يخفى ان الكاتب في لحظة ( تحويل الدم الى حبر ) - وهذه العبارة عبارة ( اليوت ) - يكون كائنا على المسرح ممثلا وجمهورا ، « جرحا وسكينا » ، جلادا ومحكوما عليه ، تداخلين افنعة الحقيقة واقنعة الفن . وهذا يعني ان الفن ذاتية فسي موضوعية حتما ، لان الفنان على درجات متفاوتة من ممارسته لادوات ابداعه ، وبالخصوص بعد تجاوزه لكتابه الاول ، وبعده اتقانه لقوانين اللعبة ، يخلق مسافة وبعدا بين شخصه وذاته ، مع مزج وصهور للكسل في بهلوانية ونجريب ومعاناة ، وهي نتاج بين اصداقسه الباطنية واشباح واقنعة - ولولا هذه اللحمة والانصهار لما كان « جوته » ، « فاوست » و ( ميقيستوفيليس ) في الآن الواحد ، ولما كان « فلوير » ( ١ ) ما دام بوفاري و ( فلوير ) معا ولما كان مونترلان Henri de Montherlant يرد على النقاد بالنفي حين ذهبوا في تاول بعض شخصياته الروائية الى ضروب من الوهم لا اساس لها اطلاقا من الصحة . ذلك ان رجال الدين الذين ابدع فسي تصويرهم هذا الكاتب الفرنسي لا يمثلونه بالضرورة كما نوهم بعض النقاد ولان النجاح في رسم ابعادهم لا يعني ان « مونترلان » مشبع بالضرورة بالاحساس الديني - والا بماذا نفسر نجاح « مونترلان » في رسمه لنماذج من بني آدم هم على النقيض تماما من رجال الدين ؟

من هنا ، كان هذا الاجبال الى حد التهافت من نقاد الفسرب المعاصرين على مذكرات الادباء وتشريحهم بواسطتها لادب الكاتب في حذر وذكاء ، مع تحليل ومقارنات وتحقيق ومراجعات للمسافة والبعد بين الكاتب الانسان في حقيقته اليومية الخالية من جل افنعة الفسرن ومقتضيات احوال الاتهام الفني ويبين الاثر الابداعي في النواتمه ، وتوتره وتعاريفه ومنعطفاته .

(١) فصل من كتاب للمؤلف تحت عنوان ( ادب المذكرات في تونس ) .  
(١) فلوير عندما قال : « Madame Bovary C'est moi »

صايغ (٢) .

والا .. كيف يمكننا ان نصل مباشرة الى ما كتبه في زمن ما بين انجربين بنوس صاحب « جولة بين حانات البحر الابيض المتوسط الشاعر والقصاص والكاريكاتور علي الدوعاجي ، وما كتبه قبله الشعراء والنصحي صاحب ( مذكرات المنفى ) محمود بيرم التونسي ، وما كتبه قبل هذا الاخير وقبل الذي قبله الشاعر الكبير الذي لم بعض الاربعة قرن فقط في عالم الناس واعني به ابا القاسم السابري؟  
يعني ان معرفه الجزء لا ساي الا بنظرة سابعه لها على الافق العام لادب المذكرات العربية ككل . هذه المذكرات التي يفرض علي شخصيا لدى التصدي اليها صريا من العجوس الاكاديمي الذي قد يتفاني مع طرائقه وعمضى الحال الذي لم يعم النقد العربي قط وانما اعنده طويلا وكان نقادنا المتصارفة والمغاربة قد استخفوا بما لادبنا العربي في باب الراجم الذاتية والمذكرات الشخصية من كنوز ولما يبيحه تنفسك انكوز من فرصة الفاء « الضوء اللامع » على ادبنا القديم والحديث وهو ادب يحتاج الى قراءة حديثه وتحليل معاصر .. وطبعاً ، المقصود من اشارتي الى « الضوء اللامع » ليس كتاب المذكرات الحامل لعنوان « الضوء اللامع » والذي فاخر فيه الشيخ محمد عبدالرحمن السخاوي منذ فرون بعدد من متايخه في فروع العلم والنعم وانما المقصود هو ان يتسلح نقادنا العرب بتأفة وسائل البحث العلمي ليفتلقوا التراث بحثاً وشريحا وشرحا بعد تنظيمه من غبار الاهمال وهدانسة الارث المحفوظ الملتب ( وقبل التراث بحثنا يعني احياء التراث ) .

- ونتيجة لوجود تراث مراكم من راجم فلسفيه وصوفيه كالتي كتبها محمد بن زكريا الرازي ، والفزالي والحسارن المحاسبي .

- ونتيجة لوجود تراث مراكم لراجم وناظية كالتي كتبها ابن سينا ، وابن رضوان المصري ووصف فيها كل منها تاريخ حياته وتلمذه وتكثيره الخ .

- ونتيجة لوجود راجم ذاتية مال فيها اصحابها الى تبريرات لاشياء وقعت او نطق بحول طرات كالتي كتبها السموال بن يحيى المغربي في احكام اليهود ، بعد اعتناقه للاسلام . وكالي كتبها حين بن استحق في تفسير ما اصابه من « اعداء الامتياز » الذين اوقفوا به وكادوا له عند الخليفة حتى كاد يسافر بلا ناشيرة الى العالم الآخر ..

- ونتيجة لوجود سخافات من المذكرات من نوع ما حفظه لنا ياقوت في « معجم الادباء » تحت عنوان « مشارب النجارب » هذا الكتاب الذي حاول فيه الشيخ علي بن يزيد البيهقي ( المتوفي سنة ٦٥ هـ ) ان يثبت لنا فيه سببه بابينا آدم .. وقد ادهى ابن هذا الشيخ شيخ من عصره وطرازه وهو الشيخ احمد بن علي بن المامون ( المتوفي سنة ٥٧٦ ) حين قام بنفس الرحلة « معرجا على المامون الخليفة في طريقه الى آدم » .

- ونتيجة لوجود ما اعتبره الاساذ عبدالرحمن بدوي : « اسمى صورة للتراجم العربية » ويعني بها تلك التي ظهرت في القرن الثامن على يد لسان الدين بن الخطيب ( المتوفي سنة ٧٧٦ ) ومعاصره الاصغر منه ، عبدالرحمن بن خلدون ( المتوفي سنة ٨٠٨ ) ( في الترجمتين حديث حول النشاط السياسي السى جانب النشاط

(٢) التعريف بادب المذكرات في بنوس - مرحلة ما بين الحربين العالميتين - هو في الواقع كالصريف بادب المذكرات في لبنان ، او بمصر ، او بسوريا ، او بالجزائر ، او بغيرها ، وخرج من تصدى الى هذه المبادرة كخرج من يقترف المرود من ارض الى اخرى او من زمن الى آخر بدون جسر او سجاداة طائرة او بدون خيال المعري ودانتي في وقت واحد .

العلمي والعقلي ) وهذا النوع من المذكرات هو ما اصبح يسمى في الغرب بالمذكرات السياسية ولكنها في الان نفسه شاملة لنوع آخر مما يجعل منها مختلطة mixte على نحو ما نجد عند جوليان غريسن وسويفت Swift وغوب Got وغيرهم .

نتيجة لوجود ما اسلفنا ذكره من تراث يفاضل عنه نقادنا في الشرق والغرب ابتداء من جيل الرواد الى يوم الناس هذا ( ونحن نلوم الاخير زمانهم « دون اعفاء رواد انهضة الاديبه العاليه الذين مارسوا كتابه المذكرات الشخصية ولم يمارسوا بعدها كما فعل العقاد في كتابه ( انا ) ، واحمد امين في مذكراته ( حياتي ) ، وميخائيل نجيمه في ( سيمون ) وغير هؤلاء كطه حسين في كتاب ( الايام ) الذي تحدث فيه بصيغة العائب عوض صيغة المتكلم على نحو ما فعل بعض كتاب فرنسا وقبلهم صاحب كتاب « ذيل الروضتين » ابو شامة ( المتوفي سنة ٦٦٥ هجريا ) .

نتيجة لذلك كان على تلك الراجم العربية ان تنظس مشرفا المانيا هو الاساذ - فرنس روزنتال Franz Rosenthal الذي نقض الفبار عن الراجم الذاتية الاسلامية في فصل طويل له بمجموعة الابحاث الترفقيه سنة ٩٢٩ لخص فيه اهم التراجم في مرحلة سبعة فرون ابتداء من القرن الثالث الهجري وتحدث عن النماذج التي احتذاها المؤلفون في العربية . فقال ان هذه الامثلة آتت الى العالم الاسلامي من مصدرين الاول يوناني والاخر فارسي. ونحن من خلال « بلخيص النخليص » الذي بفضل بالقيام به الاساذ عبد الرحمن بدوي في اعتماده على النص الالمني للفصل المذكور ، نقم اربع ملحوظات :

اولا : دراسة « الاساذ روزنتال » آتت للعرب ان لهم مذكرات شخصية هامة يمكن ان تدرس باعتبارها قسا مستغلا بذاته خلافا لما كان يعنفه الدارسون العرب والكلاسيكيون منهم بالخصوص من ان التراجم الذاتية مجرد هوامس .

ثانيا : العيب الوحيد في هذه الدراسة الفريدة من نوعها والهامة الى اقصى حد انها كتبت في سنة ١٩٢٩ في حين ان دراسة هذا الفن قد تطورت حاليا في اوروبا تطورا مدهشا ولهذا فقد اصبحت هذه الدراسة قابلة للنقاش على ضوء المفاهيم الاصطلاحية الحديثة لادب المذكرات . وهذا يعني ان على العرب ان يرجموا فصل الاساذ فرنس روزنتال من الالمانية لاعادة كتابته واعادة تصنيف وتويب التراجم العربية والسروع في اعداد « اتنولوجيات » معاصرة مسح محاولة ايجاد خط بصاعدي في تطور هذا الفن الى يومنا هذا ..

ثالثا : ما كتبه عبدالرحمن بدوي في كتابه القيم « الموت والعقوبة » عمل هام ولكنه قد تجاوزته الاحداث وذلك لاحكامه الاخلاقية المثالية التي اطلعها على هذا النوع من التدوين الكتابي الذي ينبغي ان يقال فيه الحميفة عارية الى اقصى حدود العري ، وان تسقط فيه الافئدة والبرافع .. وان ينسى فيه الكتاب المقتنيات الفنية وجثة الجمهور المعلقة عادة على فلمه عندما يخاطب الناس في قصة او قصيدة او مسرحية بذهنية الفارء او بذهنية المتأثير الفني على الفارء .

رابعا : من خلال الخطوط العامة لدراسة « الاساذ روزنتال » والاسنماجات الشخصية التي اسمنتجها عبدالرحمن بدوي ، قد نستطيع منذ الان ان نكون فكرة غير نهائية حول المذكرات العربية من القرن الثالث الى العاشر هجريا فنقول ما يلي :

المذكرات عند العرب قل ان كانت تحليلا للذات ولتفقيدات (الذات) كما انها قل ان كانت مسالة بين الكاتب ونفسه اي ضربا من التدوين الذي يفصد منه محاسبه الذات بشكل بلقي فيه تماما فكرة الفارء او تسبر فيه ذات الكاتب في صراحة عارية سافرة . وهذا الرأي يصح حتى في مذكرات رجال الصوف ورجال الدين ولعل ابرز مثال لهؤلاء « الفزالي » في الطريقة التي انهي بها تجربته وهي طريقة شبيهة كما لاحظ عبدالرحمن بدوي بطريقة الحارث المحاسبي ولها

لحصر ما أهمله النقاد التونسيون وغير التونسيين من جوانب جد هامة في ادبنا التونسي قديما وحديثا لان مجال ذلك ليس مجال هذا البحث ..

والان كيف كانت المذكرات التونسية نقطة تحول مفاجئة في تاريخ ادب المذكرات عند العرب ؟

للإجابة يمكن أن نقول ما يلي : التراجم الذاتية كانت على اختلاف أنواعها كتابة الغاية منها تنحصر في نقطتين وهما اما لتبرير أحداث سياسية أو علمية عاشها المؤلف أو الارشاد الديني أو الاخلاقي أو الثقافي بواسطة تجربة عمر في العلم أو في التأمل الديني كما فعل ابن سينا والغزالي وغيرهما ..

ثم خلافا لذلك نقرأ أولى المحاولات الجديدة التي قام بها كتاب النصف الاول من هذا القرن فنجد في مقدمتها وابتداء من فترة «ما بين الحربين» ثلاثة أدباء تونسيين يتكون ثلاثة أنماط من المذكرات على غاية من المعاصرة والجدة ووفق مفاهيم مغايرة تماما للتراث ، وهي نفس المفاهيم تقريبا لتلك التي وجدها قراء العربية فيما بعد حين بدأ رواد النهضة صياغة مذكراتهم على نحو ما فعله طه حسين وأحمد أمين والعقاد وتوفيق الحكيم وميخائيل نعيمة وغيرهم ..

فهذا الشاب منذ فراقه من القاء جام تهرده النقدي في كتابه «الخيال الشعري عند العرب» يأخذ القُرطاس والقلم ، ويجلس في سكون الليل ليفكر ويستعرض «رسوم الحياة الخالية التي تناثرت في شريط» «لياليه وايامه فينظر» الى غيابات ماضية ، ويحدد بظلمات الابد الفاضل الرهيب .

وإذا بالمذكرات العربية ابتداء من «الشابي» تأخذ منحرجا جديدا ، فاذا «بالجانب الشخصي» الذي كان غالبا في كافة التراجم الذاتية العربية يصبح «بيت القصيد» وإذا بالمذكرات تصبح تحليلا للذات في نبيضا الساخن وفي ارتعاشها امام الحياة والموت ، وفي لحظات «تشوفها الى الصباح الجديد» وفي لحظات انسحاقها أمام «سوقية» الرثابة اليومية الخالية من المعنى وامام المنطق «الافقي» اللامنتهي لتسلسل الاحداث العادية .

« والشابي » عندما حوّل المذكرات العربية الى تحليل الذات ، قد أحدث ثورة كبرى في هذا الفن العريق الذي هو « المذكرات » لان هذا الفن كان - كما رأينا - تلخيصا خشنا تختقن فيه الذات أمام الاستعراض التراكمي لانجازاتها « الايجابية » الهادفة التي كان يقصد بها المؤلف العربي القديم التفاخر بمشايخه أو بتخطيه للعراقيل او يقتخر بحصاد مطالعاته وتآليفه ، فهذا الفيلسوف محمد بن زكريا الرازي يدفع عن نفسه تهمة وجهها اليه خصومه والمتمثلة في ابتعاده عن مثله الأعلى «سقراط» . وهذا ابن الهيثم لم يكتب مذكراته الا ليحدثنا في « مقالة له فيما صنعه وصنّفه من علوم الاوائل » وهذا حين ابن اسحق ما كان ليتحدث عن « المحن والمصائب » التي أصيب بها الا ليكشف عن مكائد حساده ، وهذا « المحاسبي » لم يتروك للنسّاس « نصائح » الا ليريهم كيف انتهى الى الايمان ، وهذا الغزالي يقتفي أثر الحارث المحاسبي فيحدثنا عن تجربته التي انتهت الى « نور قذفه الله في قلبه » ، وهذا ابن سينا يرسم لنا تاريخ حياته مع تركيز أكثر على الناحية العلمية من ذلك التاريخ ، وهذا ابن رضوان المصري يقوم بنفس العملية ويصل الى نفس النتيجة .. وهلمّ جرا ، الى ابن خلدون والى ما بعد ابن خلدون ..

كل هذا لم تعد تجد له اثرا في سنة ١٩٢٠ تحت قلم الشابي الذي لم يكتب لينصح ، او ليبرر ، او ليكون مثالا يحتذى ، او يقتفى أثره ، وانما ليصفي الى ذاته « في سكون الليل » واضعا مسافسة بينه وبينها ، راسما على الورق ردود فعله اليومية بازاء الحياة والاحياء ، فاحصا « لأناه » ولجراحاتها مراقبا للخط التصاعدي في نموها ، وعبورها الكوني وفي مداها وجزرها وسداجتها وتغلسها وصراعها واستسلامها ..

طبعما تبريرها الموضوعي وملاسانها التي أسنأ الان بصدد البحث فيها .. ومن جهة اخرى ، كافة المذكرات العربية قد كتبت لغرض ارشادي مثالي ولم تكن وليدة رغبة مجانية او خاصة كسنة مهركة بين الاحساس بالعجز على تغيير الواقع وبين الطموح الى تحويله الى القيم الى تجسيم : أو كمال في عزيز فقد أو حبيب اختطفته يد المنون ( تجربة الخضراء مثلا بعد فقدانها لمثيقها « صخر » قد وجهت قريحة هذه الشاعرة الى الافراط في تحدي حقيقة المسوت استحضر الميت بواسطة القصيدة هذه التجربة مثلا قد عاشتها الكاتبة « مانسفيلد » K . Mansfield بواسطة المذكرات بعد فقدانها لايها وكذلك قد عاشها الكاتب نوقاليس بعد فقدانه لخطيبته صوفي) وما قيل عن اللهجة والمصامير والطابع والغايات يمكن ان يقال عن نظرة العرب النقدية طوال العصور الى هذه التراجم الشخصية الفاعلة للوعي باستقلالية هذا الفن عن بقية اغراض الكتابة الاخرى .. فنحن الى يوم الناس هذا ، قل ان وجدنا نقادا نظروا الى المذكرات الشخصية وفق مقاييس خاصة وبوصفها ( اي المذكرات ) فنا خاصا مستملا عن بقية فنون التدوين .

٥ - ادب المذكرات في تونس في « مرحلة ما بين الحربين » كان نقطة تحول مفاجئة في تاريخ التراجم العربية وتمهيدا غير مباشر للتطور الذي أصبح يحياه ادب المذكرات العربية . في كافة اجزاء العالم العربي وبالخصوص في المشرق على ايدي رواد النهضة الادبية امثال طه حسين ، احمد امين ، العقاد ، ميخائيل نعيمة ، توفيق الحكيم . ثم على ايدي امين نخلة ، الشناوي ، السباعي . وكل هؤلاء دون استثناء قد فننوا في كتابة المذكرات الشخصية بعد الشابي والدواعجي ويرم التونسي هذا الثالوث الادبي التونسي الذي لم يعرف العالم العربي عن مذكراتهم شيئا ، ولم يكتب عنهم شيئا باستثناء تعليقين سريعين بمجلة ( الفكر ) وذلك بعد تعليق سريع ايضا اثبته الدكتور فريد غازي في كتابه « الرواية والافصوصة في تونس وهو تعليق مقتضب على مذكرات الفصاح علي الدواعجي الذي اعتبره الدكتور غازي رائدا من الافصوصة في العالم العربي اثر مقارنة بين تكتيك « عين الكاميرا » الذي استعمله هذا الفصاح في مرحلة « ما بين الحربين » والزرعة الاخلاقية الموجودة في الافصوصة العربية عموما في تلك المرحلة .. كذلك يرى الدكتور ان الدواعجي يمكن تشبيهه من بعض الوجوه بجسون دوس بانسوس وبجسالك لوندن « و جيروم » .

وهذا الصمت الذي قوبلت به المذكرات التونسية والشرفية لئن كان من السهل تفسيره بما أسلفنا ذكره من استخفاف النقاد العرب عموما بفن ادب المذكرات فان المسألة بالنسبة لمجهولية ادب المذكرات التونسية لدى التونسيين انفسهم يمكن تفسيرها باضافة عناصر اخرى اهمها اوضاع النشر والتوزيع ، ثم وبالخصوص مسألة الاهتمام بالشابي بوصفه شاعرا والتغافل عن بقية جوانبه التي نعتبرها نحن من الاهمية بمكان . ذلك ان الشابي الذي جدد في الشعر قد كان في نظرنا ومن الزاوية التاريخية مؤلف احد الكتب النقدية الاربعة التي مهدت لتطور الادب العربي المعاصر ونعني بها كتاب « في الشعر الجاهلي » لطلح حسين ، كتاب « حصاد الهشيم » للعقاد والمازني ، كتاب « الفربال » لميخائيل نعيمة وكتاب « الخيال الشعري عند العرب » للشابي ولا ينبغي ان ننسى ان هذا الكتاب الاخير قد صدر سنة ١٩٢٩ وكان مؤلفه في ربيع او خريفه العشرين فقط . ومع ذلك فقد كان محاولة من اكبر محاولات النقد العربي « الطليعي » في ذلك العهد .

بخصوص الدواعجي ويرم فان التونسيين وغير التونسيين لم يدرسوا مذكرات هذين الاديبين بسبب « تاثير » الاهتمام وصبه في الناحية القصصية بالنسبة للاول وفي الناحية الصحفية بالنسبة للثاني مع التغافل او نسيان جوانب اخرى لهما . وبالنسبة لاسبيل

السنا مع « الشابي » ومنذ مرحلة ما بين الحربين العالميتين وجها لوجه وربما لأول مرة في تاريخ التراجم الذاتية العربية مع ادق وأوضح المفاهيم المعاصرة للمذكرات الشخصية التي تعرف في الغرب باسم - Journal intime - أي هذا النسق من التدوين الذاتي « المحدد » بزمان ومكان ، والذي يمارسه صاحبه يوم بيوم ، أو ساعة بساعة ، أو على الأقل بشيء من الانتظام المستمر .. والا فأي معنى لليوميات ان لم تكن خاضعة لهذا الترتيب الزمني ؟ ثم أي معنى لليوميات الشخصية ان لم تكن سيرا وتحليلا لردود الفعل الذاتية أمام الحياة ؟

والمتتبع المتأمل الفاحص لاحداث الدراسات المعاصرة قد لا يجد اهم ولا اصدق من هذا التعريف الذي ضبطه « اميال » . ( Amiel )  
« Ne faut-il pas que toute la vie subjective , plus immédiatement Saisie dans sa conscience que racontée dans ses acles , rentre dans le Journal »

تأكيد كهذا على ضرورة رسم اختلاجات الحياة الباطنية فسي اليوميات قد وضع الحد الفاصل بين اليوميات الشخصية وبين ما يوضع عادة تحت هذا العنوان من تراجم وسير واعترافات ..

ونحن أن أردنا أن نلتمس خطا تصاعديا فيما كتب ابتداء من مرحلة الشابي من طرف علي الدوعاجي في « جولته بين حانات البحر الابيض المتوسط » ومن طرف بيرم التونسي في « مذكرات المنفى » الى ما كتب فيما بعد من طرف أمين نخلة وطه حسين والعقصاد والحكيم ونعيمة واحمد أمين ويوسف السباعي وكامل الشنساوي وغيرهم لا يمكن ان نلاحظ ما يلي :

- أولا : المذكرات العربية المكتوبة بعد الشابي والدوعاجي وبيرم قد تطورت تطورا ملحوظا دون ان تفقد في جلها الفكرة القديمة للتراجم العربية التي كانت تصاغ في آخريات حياة المؤلف دفعة واحدة لا يوما بعد يوم ، وبشكل مباشر على نحو ما فعل الشابي . لهذا يمكن القول بأن التطور الذي نعتيه بعد الشابي في المذكرات العربية كان تتمثل في التركيز على ذلك المؤلف لا على الوعي الكامل باستقلالية فسن المذكرات من حيث هي تدوين تدريجي منتظم لاحداث بومية معاشية ضمن أطر معينة ، فهذا الدوعاجي يكتب عن الرحلة بعد الرحلة ويتحدث عن نفسه وعن الناس بشكل لم يعرف من ذي قبل عند الرحالين العرب كأمين جبير أو التيجاني أو ابن بطوطة - كذلك بيرم التونسي في « مذكرات المنفى » يرسم بدقة وضعيته في المنفى ويقدم أروع لوحات الالم الانساني ، ولكن بعد مرور الازمة وبشكل يتسم بالروح القصصية الاصلية ..

وكذلك طه حسين يتكلم بصيغة الغائب ويكتب مذكراته على الطريقة المعروفة في التراجم العربية لكن مع التركيز على الذات بشكل لسم تعرفه التراجم العربية في اقتصارها على تسجيل انجازات الخارجية للذات ..

ثم احمد امين ، والعقاد ، وجل من كتب المذكرات وابدع في كتابتها وما قيل عن طه حسين يقال عن هؤلاء .

نايا : ثورة كبيرة على صعيد الاشكال قد طرأت على ادب المذكرات بعد الشابي والدوعاجي وبيرم . وأعني بها هذا النمط الجديد الذي خلقه أمين نخلة في « المفكرة الريفية » وكان فيه نسج وحده لسم ما فاجانا به يوسف السباعي في كتابه « من حيائي » وأخيرا هذه الطرافة في الشكل والمضمون التي خلقها كامل الشناوي بهسدا الثالث من ادباء الشرق وكذلك بصاحب « مذكرات دجاجة » ايضا ، قد تحققت ثورة كبرى على صعيد المبادرات التي ظلت مبادرات السى يوم الناس هذا في مجال تفجير الهياكل القديمة التي كانت تصاغ

فيها التراجم العربية .

والتأمل في ثورة الاشكال التي ابتدعها هؤلاء الادباء يحس بان كافة الاعذار التي يقدمها النقد العربي المعاصر تبريرا لصمته هي مجرد أعذار فقط ذلك اننا مع أمين نخلة في « المفكرة الريفية » نقف للمرة الاولى امام مذكرات في شكل فصائد متشورة على نحو ما نعرفه عند « فرنسيس بونج » ( Francis Ponge ) في كتابه Leparh - pu'ses choses من جهة وعلى نحو الكلمات الجامعة التي كتبها الفريد دي فيني في مذكراته وبول فاليري Paul Valery وغيرها ..

وقد يبدو هذا المنحى غريبا من امين نخلة بالذات الشاعر الكلاسيكي الذي لم يأتي بجديد في فصائده المنظومة الموزونة المغناة .. وما قيل عن نخلة ، يمكن ان يقال عن كامل الشناوي الذي لسم يخرج عن أهابه حين سجل مذكراته تحت عنوان « ساعات » وهي مذكرات خالية من أطار الزمان والمكان ، وقصائد متحررة من الوزن والقافية ، مع تركيز على حبيبة أحبها الشاعر وجعل من كل «ساعاته» نافذة بطل منها عليها .. دون اشارة الى اسمها وكأنه كان براها ويرى كل العالم من خلال غيمة شفافة .

ومع يوسف السباعي ، نجد أفقا آخر يفتح فجاة في المذكرات ، هذا الاق هو المقالة الفكاهة الباسمة المكتوبة بقلم قصاص ذكي لا يريد ان يتجهم كالشابي ، أو يتكلم بجديبة أحمد أمين ورضائه . وانمسا يريد ان ينظر الى حياته وطفولته وشبابه من خلال نكتة قد تذكرك بروح المازني وبروح على الدوعاجي . ولكنها نكتة اخذت شكلا صحفيا مقاليا خفيفا .

أما صاحب « مذكرات دجاجة » فهو في مذكراته المغففة بالنقد الاجمائي والسياسي يتخلى عن الشعر والمقالة والتجهم معا ويعيد الى أذهاننا جو « كليلة ودمنة » لكن في شكل مذكرات طريقة السى أقصى حد ..

## محمد مصولي

### ● بعض مراجع :

- « المبقرية والموت » تأليف عبد الرحمن بدوي
- « مذكرات المنفى » تأليف محمود بيرم التونسي ( الشركة التونسية للنشر والتوزيع ) .
- « جولة بين حانات البحر الابيض المتوسط » تأليف علي الدوعاجي .
- « مذكرات » تأليف : أبو القاسم الشابي ( الدار التونسية للنشر ) .
- مجلة ( الفكر ) - التونسية .

- مراجع أخرى .

- Le Roman et La nouvelle en Tunisie  
Ferid Ghazi ( M.T.E)
- Les Journaux intimes - par Miehéle Leleu  
( Presses universitaires de France )
- Alfred de vigny ( Journal d'un poete ) Bordas , 1949
- Henri de Montherlant ( Carnets ) Laffont .. 1947
- Journal des Faux - Monnayeurs ( Gallimard )
- Henri - Frédéric Amiel ( Journal intime
- Henri de Montherlant ( Carnets ) Laffont ..